# التكسب بالشر وهجاء الناس في الشعر العربي القديم من خلال كتاب الأغاني

أ.د. علي عبدالامام مهلهل الاسدي

الملخص :

عُنِيت هذه الدراسة بلون من الهجاء، شغل حيّزاً واسعاً في الشعر العربي القديم، ولم يلتفت إليه الباحثون في دراساتهم، فقد اتخذه بعض الشعراء وسيلة للتكسب بالشر وثلب الناس والتعريض بهم.

وهذا اللون من الهجاء يقترن بالمديح التكسبي ويسير في ركابه، فالمادح والهجّاء معاً ينشدان العطاء والكسب، ولكن كلّ واحد منهما على شاكلته، وطريقة اصطياده.

وقد قُسِّمت هذه الدراسة على ثلاثة مباحث هي: جذور الظاهرة وينابيعها، وذروة الظاهرة وأوجُها، وشعبية الظاهرة وانحسارها. واعتمدت الدراسة في تتبع هذا اللون من الهجاء على كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. فقد رفد البحث بشواهد وافية عن الظاهرة منذ العصر الجاهلي وحتى عصر بني العباس.

**Summary**

This article is to demonstrate a type of criticism in which is occupied an extended area of ancient Arabic poetry. This type of poetry has not been studied well by authors and researchers, on the contrary, some poets used it as a way to gain money, criticize people, and expose them. This kind of poetry is similar to the commendatory poetry type whereas they are similar to each other. In other words, the similarity between the commendatory and criticism poetry are both aiming for benefits and earnings; however, each type has its way in persuading. This article consists of three parts: the first part discusses the roots of the phenomenon and its sources, the second part discusses the rising period time of the phenomenon, third part explains the popularity of the phenomenon and how did it diminish. This article is depended mainly on the Alaghani textbook as a reference. Where this book has factual examples of this phenomenon for the period from the Aljahili era until the Bin Alaabas era.

تقديم :

جاء في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني في باب (التكسب بالشعر والأنفة منه) إن العرب كانت لا تتكسب بالشعر، حتى نشأ النابغة الذبياني فمدح الملوك، واتخذ من الشعر مهنة للتكسب، فجنى مالاً وفيراً بعد أن قبل الصلة بالشعر، وخضع للنعمان بن المنذر، وكان قادراً على الإمتناع عنه بمن حوله من عشيرته، أو مَن سار إليه من ملوك غسان. وجاء الأعشى بعده وجعل الشعر مَتْجَراً يتّجر به نحو البلدان(١). وبعدهما اتخذ كثيرٌ من الشعراء المديَح وسيلةً من وسائل التكسب والإرتزاق، والوصول إلى الجاه والسلطان، وابتكروا لذلك كلَّ سبيل، وأراق بعضهم ماء الوجه، وتوسَّل للممدوح، وقد ((كان الشاعر في مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب؛ لحاجتهم إلى الشعر في تخليد المآثر، وشدة العارضة، وحماية العشيرة ... فلما تكسبوا به، وجعلوه طُعمة، وتولّوا به الأعراض وتناولوها صارت الخطابة فوقه، وعلى هذا المنهاج كانوا حتى فَشَتْ فيهم الضراعة، وتطعّمُوا أموال الناس، وجشعوا فخشعوا، واطمأنت بهم دارُ الذلة، إلاّ من

وقر نفسه وقارها، وعرف لها مقدارها، حتى قُبض نقيَّ العِرض مصون الوجه، ما لم يكن به اضطرار تحلُّ به الميتةُ، فأما من وجد البلغة والكفاف فلا وجه لسؤاله بالشعر))[٢]. وفي الآن نفسه رغب الملوك والأمراء وعليّة القوم في تقريب الشعراء واصطناعهم لما وجدوا في الشعر من منافع دعائية، ومزايا إعلامية، فأعطوا الشعراء الهبات الرغيبة والعطايا السنيّة، فدعاهم ذلك إلى أن يخلطوا الباطل بالحق، وشابوا الكذب بالصدق، فقالوا في الممدوح فوق ما كان فيه، وقرظوه بما ليس له بأهل، فنزلوا رتبة عن تلك الدرجة[٣]. وتحدث المرزوقي عن مساوئ التكسب بالشعر، وكيف أخرج الشعراءُ الشعرَ عن حدّه ((واتخذوه مكْسبةً وتجارة، وتواصلوا به إلى السوق كما توصّلوا به إلى العْلية، وتعرّضوا لأعراض الناس، فوصفوا اللئيم عند الطمع فيه بصفة الكريم، والكريم عند تأخر صلته بصفة اللئيم، حتى قيل: الشعر أدنى مروءة السري، وأسرى مروءة الدني))[٤].

وهكذا أصبح للشعر سوق رائجة تتدفق فيها الأموال في حجور الشعراء كما تتدفق القصائد في مسامع الخلفاء والأمراء وذوي الشأن والسلطان. وبات الطمعُ يجرُّ المادح للسير على أرض (رجراجة) فيها من مهاوي السقوط ومزالقه ما يجعل ارتيادها أمراً غير مأمون، وهو ما لفت انتباه نقدة الشعر وأربابه في العصر العباسي، فدعا بعضهم إلى إدانة الشعراء الذين اتخذوا من الشعر وسيلة تكسب، وَشهَّرَ بمن مضى بالشعر العربي الأصيل على درب الهوان والتزلف والنفاق والتضرع[٥].

وإذا كان هذا شأن المديح التكسبي، وهذه عيوبه ومضاره منذ أيام النابغة والأعشى، ومن سلك دربهما، فإن التكسب بالشر وهجاء الناس، أمضى خطراً على الشعر والشاعر والمجتمع من المديح التكسبي، وذلك عندما يصبح الهجاء وسيلة ارتزاق ينحرف به الشاعر لابتزاز من لا يستجب لمطالبه، ولا يمتثل لطمعه. وإذا كان للهجّاء أيضاً في بعض المواطن غاية نبيلة هي ذم الخصال الرذيلة والأفعال القبيحة، لوخز ضمير مرتكبها وإيلامه، واستنفار المتلقي لشجبها أو العدول عنها؛ فإن هذا اللون من الهجاء أشدُّ إضراراً، وأدهى إبتزازاً، وأمضى قهراً على الذات المهجوّة المرغمة على الإنصياع لمطالب الشاعر الهجّاء إتقاءً لشر لسانه.

فالهِجَاء منذ القِدم مرتبطٌ بالشّر، لائط به، يبعث الخوف والرهبة في نفوس الناس ((وَلأمرَّ ما بكت العرب بالدموع الغزار من الهجاء، وهذا من أوّل كرمها))[٦] فهم يخافون شرّه، ويخشون سلطانه، ويحاولون ما استطاعوا أن يتخلصوا ممن يتهددهم أو يلمح إلى تهديدهم به. فالعربي – بطبعه – يحرص كل الحرص على سمعته وعرضه وحسبه ونسبه. وقد أدرك الهجاؤون هذه المزيّة، وتنبهوا لشعر الهجاء وما يدرُّ عليهم من مكاسب مادية تعدل منافع المديح التكسبي، وهذا ما يبدو جليّاً في إجابة بشار بن برد لمن سأله ((إنّك لكثير الهجاء؛ فقال: إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع (عَضُد) الشاعر من المديح الرائع، ومن أراد من الشعراء أن يُكرم في دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر وإلاّ فليبالغ في الهجاء ليُخاف فَيُعطى))[٧]. وهكذا عظم خطر الهجاء، وارتفعت قيمته الفنية بعد أن احترفه بعض الشعراء، وأصبح لديهم صناعة وحرفة يقفون عليها جهدهم، بما يجعل لها الأثر المرجو في الناس[٨].

والهجاء المقصود في بحثنا هو لون من الشعر يصدر عن الطمع، ويتأثر بالأهواء النفسية، والحالة المعيشية المجدبة للهجّاء، وهو أقرب إلى الوعيد والتهديد، فإن لم يستجب المهجو تحول إلى سباب وسخط وتنكيل؛ إذ ينشر الهجّاء على مهجّوه مخازيه ويجعله أضحوكة ومُثلة، وهو لا يرجو من وراء فعله هذا إصلاحه أو تطهيره من العيوب، وإنما يرمي إلى اصطياده والإعتياش عليه.

جذور الظاهرة ومنابعها:

من يرجع إلى كتاب الأغاني يجد أن ظاهرة التكسب بالهجاء والتعرض للناس بالشر كانت حاضرة في طياته، فهو يوفر مادة غنية لدراسة هذه الظاهرة منذ العصر الجاهلي وحتى زمن الأصفهاني. فالأغاني فضلاً عن كونه كتاب أدب ونقد فإنّه يرفد الباحث بمادة تاريخية واجتماعية عند عرض النص الأدبي وبيان مناسبته والظروف المحيطة به.

إنّ نهجنا في تتبع هذا اللون من الهجاء قائم على التسلسل التاريخي في تقصي الظاهرة، وتحليلها تحليلاً أدبيّاً مناسباً، لذا فإنّ أوّل ما يطالعنا في هذا اللون الهجائي هو ما دار بين الأعشى (ميمون بن قيس) وبين قريش وقد أراد أن يَفِدَ على النبي (ص) ليَسلم، فردته قريش بجائزة ثمينة

اتقاء لهجائه إن أسلم. وكان حاضراً في أذهانهم أنّه صناجة العرب، يعتاش على الشعر ويرغب في العطايا والهبات ((فلما ورد عليهم قالوا له: أين أردت يا أبا بصير؟ قال: أردت صاحبكم هذا لأسلم. قالوا: إنّه ينهاك عن خلالٍ ويحرّمها عليك، وكلها بك رافق ولك موافق. قال: وما هنّ؟ فقال أبو سفيان بن حرب: الزنا. قال: لقد تركني الزنا وما تركته؛ ثم ماذا؟ قال: القمار. قال: لَعلّي إن لقيته أن أصيبَ منه عوضاً من القمار؛ ثم ماذا؟ قالوا: الربا. قال: ما دُنتُ ولا ادَّنْتُ؛ ثم ماذا؟ قالوا: الخمر. قال: أوّه! أرجع إلى صُبَابة قد بقيت لي في المهراس (حجر منقور) فأشربها))(٩).

ومن الملاحظ أنّ الأعشى ردّ المفاوض باحتيال ودهاء وقد حضر في ذهنه ما تريده قريش من الصدِّ والإحالة بينه وبين النبي (ص)، - مثلما حضر في ذهن الباحث أيضاً أن الأعشى قصد التعرض إلى قريش - فرفع سقف المطالب بوصفها نظيراً للشعر ودوره الإعلامي الفعّال إن إلتحق بالمعسكر المقابل، إذ شرع بتفنيد ما يُنهى عنه بحجة دامغة تلجم المفاوض وتقطع عليه الطريق. وقد وعى المفاوض مقصد صاحبه المادي، وأدرك الخطر القادم بوصف الأعشى قناة إعلامية شديدة الوقع والإيلام، فراح يغريه بالمال الوفير ((فقال له أبو سفيان: هل لك في خير مما هممت به؟ قال: وما هو؟ قال: نحن وهو الآن في هُدنة، فتأخذ مائة من الإبل وترجع إلى بلدك سَنَتَك هذه وتنظر ما يصير إليه أمرنا، فإن ظهرنا عليه كنتَ قد أخذت خلَفَاً، وإن ظهر علينا أتيته. فقال: ما أكره ذلك. فقال أبو سفيان: يا معشر قريش، هذا الأعشى والله لئن أتى محمداً واتّبعه ليُضرمنّ عليكم نيران العرب بشعره، فاجمعوا له مائة من الإبل، ففعلوا فأخذها وانطلق إلى بلده))(١٠) فالنص المقتبس يُعلن عن عرضٍ قوامه الحجاج والإقناع دار بين أسمى قبائل العرب وأعلاها مقاماً وغنى، وبين شاعر له ما له من الشأن عند العرب والعجم على حدّ سواء. وقد انتهى التفاوض بالإتفاق على حظر عمل قناة الأعشى الإعلامية عن البث الهجائي لمدة (سنة واحدة) على أن يدفع الطرف المواجه المال المقرر (مائة من الإبل). وبذلك حصل الكسب بالشعر وأدواته المنافقة المختالة عبر منفذ مغاير لها لما عُهد، فقد جنى الشاعر مالاً وفيراً بعد أن لوّح بالهجاء وغمز بشره.

وإذا كان المداحون المتكسبون قد ارتبطوا بالسلطان ورجاله منذ العصر الجاهلي، رغبة بعطايا الملوك وأرباب الدول، وكانوا يخشون عظمة الممدوح ويرهبون بطشه؛ فيعرضون بضاعتهم بلين والتماس ورجاء وتضرّع. فإن الهجائين المتكسبين قد قصدوا بهجائهم ذوي الجاه، والنابهين من أهل الفضل والعطاء، فتقاطعوا مع المألوف، وتمرّدوا على النمطية، وتحيّنوا مصائد قنصٍ لا تهمهم عواقبها، إذ تعرضوا لأعيان القوم وشجعانهم، فقوّضوا صفاتهم الحميدة بعد أن خرجوا بالشعر عن مهمته الإبداعية والأخلاقية، وهو أمر في غاية الغرابة والمفارقة حين يصبح الشعر وسيلة شرٍّ لإبتزاز كرام الناس وأعيانهم. فقد جاء في كتاب الأغاني أنّ الشاعر الجاهلي دريد بن الصمّة هجا عبد الله بن جدعان التيمي، وكان المهجوُّ رجلاً كريماً من تيم قريش، فقال دريد يعرض فيه(١١):

هل بالحوادثِ   أم بابن جُدعانَ عبد
والأيام من عَجَب   الله من كَلَب
أستُ حميتٌ وهي   في يوم حرٍّ شديد
في عكم ربته   الشرّ والهرَب
إذا لقيتَ بني حربٍ   لا يأكلون عَطينَ
وإخوتهم   الجلد والأُهب
لا ينكُلون ولا تشوي   من الكماةِ ذوي
رماحُهمُ   الأبدان والجُنَب
فاقعُد بَطيناً مع   وإن غزوتَ فلا
الأقوام ما قعدوا   تبعُد من النصَب
فلو ثقفتُكَ وسط   إذاً تلبّسَ منك
القوم ترصُدُني   العرض بالحَقَب
وما سمعتُ بصقرٍ   من قبل هذا بجنب
ظلّ يرصُدُه   المرج من خَرَب

فقد سخر من الرجل ونعته بالكسل والبدانة والقِصر، ووصمه بالشحِّ والتقتير والشره، بل قصد قومه وسلب حسبه ونسبه، فسار الهجاء مع الركبان، واستطار بين القبائل، ((فلقيه عبد الله بن جدعان بعُكاظ فحيّاه وقال له: هل تعرفني يا دريد؟ قال: لا. قال: فلم هجوتني؟ قال: ومن أنت؟ قال: أنا عبد الله بن جُدعان. قال: هجوتُك لأنّك كنت امرءاً كريماً، فأحببتُ أن أضع شعري موضعه. فقال له عبد الله: لئن كنت هجوتَ لقد مدحت، وكساه وحمله على ناقة برَحلها))(١٢).

ومن الملاحظ أنّ الهجّاء في هذا اللون، متمردٌ متعسّفٌ مؤنِّبٌ، متوعدٌ، يترضاه المهجو لإسكات لسانه، واتقاء شرّه. فإذا كان المدّاحُ المتكسبُ قطع لذلك كلَّ سبيل، وأراق ماء الوجه وتوسل الممدوح واستجداه، فإن الإستلاب في هذا

الهجاء من أقوى الأسلحة، وأشدّها دهاءً ومخاتلة، يُقصدُ الآمنُ ولا ذنب له سوى أنه ذو مال، أو جاه وشرف ومنزلة، يخشى تدنيس عرضه وحسبه ونسبه. وهذا ما دفع بعض النقاد القدامى إلى رصد شعر التكسب من زاوية أخلاقية، فرأوه يدخل في باب الكذب والنفاق والشر(١٣). وعدّوا المتكسبين بالشعر من صنف المخادعين، وحذّروا من رُقاهم وما نصبوا من شراك، وما دسّوا من دواءٍ(١٤).

ذروة الظاهرة وأوجُها :

من الواضح أنّ التكسب بالمديح في العصر الجاهلي كان مقصوراً على شعراء معدودين مشخّصين في بلاد العرب، يأتي في مقدمتهم النابغة والأعشى، ويضيف أرباب الأدب والنقد إليهما بعض شعر زهير بن أبي سُلمى في هرم بن سنان. فالغالب على طباعهم الأنفة من السؤال بالشعر، وقلّة التعرض به لما في أيدي الناس(١٥). إذا كان هذا حال المديح، فإن التكسب بالهجاء يكاد يكون معدوماً في هذا العصر، إلاّ فيما ندر بمواضع أشرنا إلى بعضها وان تداخل زمنها مع فجر الإسلام. وعلى ما يبدو أن بذرة الشر التي غرسها الأعشى قد نمت وترعرعت في العصر الإسلامي على يد شاعر مخضرم احترف الهجاء، واتخذه تجارة ومعاشاً، إنّه الحطيئة الذي عدا على الناس بالشتم ينال منهم قبل ان ينالوا منه(١٦). يقصد مهجوّه قصداً فيلدغه من دون ذنب أو جريرة. فقد رُوي أنّ عبد الرحمن بن أبي بكرة قال للحطيئة: ((يا أبا مُليكة، مَن أشعر الناس؟ فأخرج لسانه كأنّه لسان الحيّة ثم قال: هذا إذا طمع))(١٧). ويرى الأصمعي أن شعر الحطيئة الحسن فسدَ ((بهجاء الناس وكثرة الطمع))(١٨) فعظم خطره وشاع شرّه، وتكسب بالهجاء عند كرام الناس وبخلائهم على حدٍّ سواء، فهو يهجوهم جميعاً حتى يحسنوا إليه فيكف. فسارعت القبائل والأشراف إلى إغداق النعم عليه، والتلطف إليه قبل أن يسبقهم هجاؤه. فقد نزل على بني مقلّد بن يربوع في سنة مجدبة ((فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: إنّ هذا الرجل لا يسلم أحدٌ من لسانه، فتعالوا حتى نسأله عمّا يحب فنفعله وعمّا يكره فنتجنبه، فأتوه فقالوا له: يا أبا مُليكة مُرنا بما تحب أن نفعله وبما تحب أن ننتهي عنه ...))(١٩) ومن يقرأ هذا النص يُخيّل إليه ان الحطيئة غدا (فرعون زمانه) تتضرع إليه الرجال، وتحاذر منه الكرام الشجعان وتوصي بعضها بعضا، فأيّ سلطان هذا الذي قلب الموازين، وجعل أعيان القوم ونبلاءهم يخشون فرداً وضيعاً لئيماً فاجراً؟ إنّه – باختصار شديد – زمن الشعر وسلطته الصارمة ، ومركز ثقله المهيمن، ولعل الأمر متعلق بحياة العرب القائمة على التنافس الشديد، والقسوة التي لا تلين، فشعرهم وآثارهم يرشحان القوة في كل صورها، لأنَّها المثل الأعلى الوحيد الذي آمنوا به وحرصوا عليه، فكل ما نالته يدُ القوي فهو حقٌّ له. الفضيلة عندهم هي الإقدام وركوب المخاطر والأهوال، والتجلّد للمكاره والخطوب، للقوي صفوة الحياة ومتاعها، وللضعيف الفضل والعفو والتضرع والخنوع، فلم يكن للوادع المسالم مكان، وإنّما كان المكان الأول للظالم الغاشم الذي ينتزع نصيبه من معترك الحياة، جريئاً معتدياً(٢٠).

وقد فضّل الحطيئة المتكسب بشعره أن يسلك درب الهجاء وعنفوانه وسطوته، ويدع المديح وسؤاله وخذلانه، وأن يملي شروطه على بني مقلّد بعد أن سألوه ما تحب وما تكره، فقال وهو يشعر بالزهو والكبرياء: ((لا تكثروا زيارتي فتملّوني، ولا تقطعوها فتوحشوني، ولا تجعلوا فناء بيتي مجلساً لكم، ولا تسمعوا بناتي غناء شبانكم، فإن الغناء رقية الزنا ... فأقام عندهم وجمع كلّ رجل منهم ولده وقال: أمُّكم طالق، لأن تغنّى أحدٌ منكم والحطيئة مقيم بين أظهُرنا، لأَضْرِبنّه ضربةً بسيفي أخذت منه ما أخذت، فلم يزل مقيماً فيما يرضى حتى انجلت عنه السنة))(٢١) فأيّ شرّ يتلبس هذا اللاجئ؟ وأي سمّ ينفثه؟ وقد أخاف الرجال، فعدلوا مرضاته بطلاق النسوان، وضرب أعناق الولدان.

ومما ذكره الأصفهاني في أخبار الحطيئة إنه ((قدم المدينة وقد أرصدت له قريش العطايا، والناس في سنةٍ مُجدبةٍ وسخطةٍ من خليفة، فمشى أشراف أهل المدينة بعضهم إلى بعض، فقالوا: قد قدم علينا هذا الرجل وهو شاعر، والشاعر يَظُنّ فيُحقِّق، وهو يأتي الرجل من اشرافكم يسأله، فإن أعطاه جَهْدَ نفسه بَهَرَها، وإن حرمه هجاه، فأجمع رأيُهم على أن يجعلوا له شيئاً مُعَدّاً يجمعونه بينهم له، فكان أهل البيت من قريش والأنصار يجمعون له العشرة والعشرين والثلاثين ديناراً حتى جمعوا له أربعمائة دينار، وظنوا أنّهم قد أغنوه، فأتوه فقالوا له: هذه صلة آل فلان وهذه صلة آل فلان وهذه صلة آل فلان، فأخذها، فظنوا أنهم قد كفوه عن المسألة، فإذا هو يوم الجمعة قد استقبل الإمام

ماثلاً يُنادي: مَن يحملني على بغلين وقاه الله كبّة جهنم))[٢٢].

لو رفعنا اسم الحطيئة من النص لظنّ القارئ – كما في النص السابق – أنّ القادم إلى ارض الحجاز سلطانٌ متجبرٌ ذو شأن عظيم، رصدت له الأشراف وكبار القوم العطايا والهبات، فهم يباصرون حكماءهم ويُشاورون شيوخهم في كيفية جمع المال. وقد انشغلوا بأمره في تلك السنة المجدبة المائرة بسخط السلطان وغضبه أكثر مما انشغلوا بأنفسهم.

وقد يعذرُ عاذرٌ هؤلاء القوم فهم يخشون على أعراضهم وأحسابهم من جرثومة الشعر المستوطنة لسان الشاعر مثلما خشيها قبلهم بنو قريع وقد مكث الحطيئة عندهم، فكان الرجل منهم يعطيه على قدر ماله البعير والبعيرين، حتى أتمها أحد أشرافهم مائة بعير وراعيين قد دُفعت إليه اتقاء لشره[٢٣]. ومثلما خشيها بنو مقلد من قبل وكانوا في حينها أمضى بأساً وأقوى عزّاً بين قبائل العرب.

وقد أشار الدكتور محمد محمد حسين إلى جانب من شرّ الحطيئة وَعَلَّله بقوله: ((إنّه رجل قد رسم له طريقه ، بين قوم لا يثنيهم عن الظلم إلاّ الظلم ، ولا يردّهم عن العدوان إلاّ العدوان))[٢٤]. والمتأمل في بعض حكايات الحطيئة يقف على سداد ما ذهب إليه الدكتور محمد محمد حسين، فقد تجسد هذا التعليل على أرض الواقع في مجلس الأمير سعيد بن العاص بالمدينة، وقد نظر على بساطه رجلاً قبيح المنظر، رث الهيئة، فغمز إلى الشُرط أن يخرجوه، فأبى أن يقوم، وكان المتسامرون يأخذون بأطراف الحديث، يتذاكرون أيام العرب وجيّد أشعارها، والحطيئة يستمع مليّاً، ويغلي حقداً، يتحين الردّ في جرأة صفيقة، ولسان سليط، ووجه متجهم. ودار الحديث بما لا يمكنه السكوت، فقال بنبرة المتحدي: والله ما أصبتم جيّد الشعر ولا شاعر العرب، وقد لفت الإعتراضُ انتباه ابن العاص، فقال مستغرباً: أتعرف من ذلك شيئاً؟ قال: نعم، قال: فمن أشعر العرب؟ قال أبو دُواد الإياديُّ في قوله:

لا أعُـدُّ الإقتـارَ عُـدماً ولكـــــنْ ... فَقْـدُ مَـن قـد رُزِئتُـهُ الإعــــدامُ

وكان في حواره صلفاً مختالاً وصف نفسه حين سأله سعيد بن العاص عن المبرّز من الشعراء، فقال ملوّحاً بالشر: والله لحسبُك بي عند رغبة أو رهبة إذا رفعت إحدى رجليّ على الأخرى. ثم عويتُ في أثر القوافي عُواء الفصيل الصادي فرحّبَ به سعيد ووصله وكساه[٢٥].

وبعد أن استمرأ الحطيئة التكسب بالهجاء، وقد شُهر به، وأتقن أدواته وألاعيبه، وأدرك شرّ لسانه في قلوب الناس، ترفّع عن الإلحاح في طلب العطايا، واكتفى بالتلميح بالهجاء من دون نظمه، وقد بات اسمه مصدر رعب وخوف لذوي المال والجاه. فقد روى الأصفهاني أنّه قصد ((عتبة بن النهّاس العجلي فسأله؛ فقال له: ما انا على عمل فأعطيك من عدده، ولا في مالي فضل عن قومي؛ قال له: فلا عليك، وانصرف. فقال له بعض قومه: لقد عرّضتنا ونفسك للشر؛ قال: وكيف؟ قالوا: هذا الحطيئة وهو هاجينا أخبث هجاء؛ فقال: ردّوه، فردّوه إليه، فقال له: لِمَ كتمتنا نفسك كأنّك كنت تطلب العِلل علينا. إجلس فلك عندنا ما يسرّك؛ فجلس فقال له: من اشعر الناس؟ قال: الذي يقول:

وَمَـــن يجعـــل المعـــروف مـــن دون ... يَفِـرْهُ وَمَـن لا يتَقـي الشـــتمَ يُشـــتمِ

فقال له عتبة: إنّ هذا من مقدمات أفاعيك؛ ثم قال لوكيله: اذهب معه إلى السوق فلا يطلب شيئاً إلاّ اشتريته له ...))[٢٦].

ومَن يتدبّر النصَّ يقف على أمور عدّة، منها: إنّ الحطيئة غير مكترث لصدّه وعدم الإستجابة لطلبه، فلم يكن لحوحاً في طلب العطاء، واكتفى بقول الواثق بنفسه ((لا عليك وانصرف)) وهذا يدلُّ على أنّ الحطيئة يضمرُ شرّاً، وهو حاصل لا محال عاجلاً أم آجلاً، فجملة (لا عليك) الموجزة تحمل بين طياتها نسق التحذير، بل الوعيد والتهديد، وهي أشبه بما يقوله بعض الخصوم في عصرنا الحاضر لخصمه متوعداً إيّاه بالشر والقصاص (هيّن يصيرُ خيرا). وقد أدرك عتبة بن النهاس وقومه شرّ الحطيئة المتواري خلف الرماد، فاجتهدوا في استرضائه والتودد إليه (لم كتمتنا نفسك كأنّك تطلب العِلل علينا).

ثانياً: ارتباط اسم الحطيئة بالشر، فاسمه يبعث الفزع في قلوب سامعيه. ويبدو هذا جليّاً في تحذير قوم عتبة له (هذا الحطيئة) (وهو هاجينا أخبث الهجاء). فقد جنى في مناسبات كثيرة مالاً وفيراً لأنه (الحطيئة) من دون أن ينظم بيتاً واحداً في الهجاء.

ثالثاً : لقد تغيّرت موازين القوى في هذا النص، إذ بات القويُّ المنّانُ (صاحب المال

والنفوذ) ضعيفاً صاغراً، والضعيف المستعطي بشعره قويّاً متعالياً متمرّداً. وهكذا تحقق الكسب – بل سمّه الإغتصاب إن شئت – بمجرد التلويح بالهجاء وشرّه الإعلامي الفاضح. وقد استحضر الحطيئة بذكائه اللمّاح بيت زهير بن أبي سلمى، ووقف خلفه شاهراً سيفه، فالقوي – عنده – لا يستجدي قُوْتُه وإنّما ينتزعه انتزاعاً.

* * *

ومن يتعقب هذا اللون من الهجاء في العصر الأموي يتلمسه يسيرُ في الإتجاه الذي سبقه ويدور في فَلَكِه، وقد شكّل ظاهرة واضحة، إذ يُنظم في نصوص مصحوبةٍ بسرد حادثة اجتماعية غالباً ما تكون مرتبطة بموقف شعبيّ مثير.

ومن الهجائين الأمويين الذين عُرفوا بهذا الكسب ، الشاعر الحجازيُّ الحزين الكناني ((وكان هجّاءً خبيث اللسان ساقطاً، يرضيه اليسير، ويتكسب بالشر وهجاء النس، وليس ممن خدم الخلفاء ولا انتجعهم بمدح))(٢٧). وقد ذكر صاحب الأغاني إنّ الحزين ضرب على كلّ رجل من قريش درهمين في كل شهر، منهم ابن أبي عتيق، فجاءه لأخذ درهميه على حمار له أعجف، فدعا ابن أبي عتيق للحزين بدرهمين، وكان الشاعر (كثّير) حاضراً في مجلس ابن أبي عتيق، فقال الحزين: مَن هذا معك؟ قال: هذا أبو صخر كثّير بن جمعة، وكان قصيراً دميماً، فقال له الحزين: أتأذن لي أن أهجوه ببيت شعر؛ قال: لا ! لَعمري لا آذن لك أن تهجو جليسي، ولكن اشتري عرضه منك بدرهمين آخرين ودعا له بهما. فأصغى ثم قال: لابد من هجائه ببيت، فقال ابن أبي عتيق: أوَ أشتري ذلك منك بدرهمين آخرين. ودعا له بهما. فأخذهما ثم قال: ما أنا بتاركه حتى أهجوه – وقد بات رزقه في عِلباء الرجل – قال: أوَ أشتري ذلك منك بدرهمين آخرين. فقال (كثّير) لابن أبي عتيق، إئذن له وما عسى أن يقول فيّ في بيت! فأذن له ابن أبي عتيق، فقال الحزين:

قصـــيرُ القمـــيصِ يعـضُّ القـرادُ بأسـته  
فـــاحشٌ عنـــد بيتـــه وهـــو قـــائمُ

فوثب كثّير إليه فلكزه، فسقط هو والحمار، وخلّص ابن أبي عتيق بينهما.وقال لكثير: قبّحك الله؛ أتأذن له وتبسط إليه يدك! فقال كثّير: أوَ أَنَا ظننته أن يبلغ بي هذا كله في بيت واحد(٢٨)! وكان على كثّير أن ينصاع للشاعر الحزين، وأن يجاري جشعه مثلما اتقى أشراف القوم وفتيانهم شرّه وشرَّ غيره. ولو كان (كثّير) يعلم بقبح البيت وفداحة شرّه لَتَوقّاه بالدنانير الذهبية لا بالدراهم، فقد ختمه بأسته شرَّ ختمة ببيت يبقى ميسمه ويجري على كل لسان، إذ تناقله الولدان وسار مع الركبان.

ولم يكن خطر الشاعر الهجّاء محدوداً في نطاق القبيلة أو البلاد التي يقطنها، وإنّما ذاع صيت المتكسبين بالهجاء، وعبرت أخبارهم الآفاق، وتوقاهم أشراف القوم وعامتهم، فالشاعر الحزين ليس من فحول طبقته، ولم يفارق الحجاز حتى مات(٢٩). إلاّ إنّه كان معروفاً، يحذر القريبُ قبل البعيد شرّ لسانه، ويبدو ذلك في خبر نقله الأصفهاني: إن عبد الله بن عبد الملك بن مروان أحد فتيان بني أمية وظرفائهم، خرج من الشام قاصداً الحجاز، فقال له أبوه محذّراً: سيأتيك الحزين الشاعر بالمدينة، وهو ذربُ اللسان، فإيّاك أن تحتجب عنه، وأرضه، وصفته كذا وكذا، فلما قدم عبد الله المدينة، وصفه لحاجبه، وقال له: إيّاك أن تردّه، فلما مثل بين يديه أكرمه، وأغدق عليه إتقاءً لشرّه وخبث لسانه(٣٠).

والويلُ كل الويل لمن يغضب هجّاءً، ويمنعه العطاء، فحرمان الشاعر المتكسب من الجائزة، وسد الباب بوجهه، والإحتجاب دونه، دافع كبير وراء غضبه على مَن منعه. وإذا كان بعض الشعراء يستقلل عطيّة ممدوحه فينقلب عليه ذامّاً مشهّراً، يرميه بما يسقطه ويشينه؛ فإنّ مَن حُرم البتّة يكون أكثر إيلاماً وسخطاً على مهجوّه، يقذفه بكل رذيلة ويشوّه ذكره أبد الدهر. يقول أحد الباحثين: ((ولست أقول: إنّ هؤلاء الشعراء أنصفوا مهجويهم، ولكن كان على هؤلاء المهجوين ان يتّقوا شرّ ألسنة الهجائين خاصة أولئك الذين يتحملون نصب الرحلة الطويلة طلباً للعرف، وبحثاً عن اللهية))(٣١).

ولعل الحنق المقيت، والإحساس العميق بالخيبة هو ما فجّر في نفس (الشاعر الحزين) مشاعر الغيظ والحقد، حتى تحولت على لسانه حمماً صبّها على مهجوّه عمرو بن عمرو بن الزبير بن العوام وكان قد مدحه فلم يعطه شيئاً. وبعد حوار ساخن بينهما حول مَنْع العطاء، قال عمرو للحزين ((وكيف تكون مستحقاً لشيء من الخير وأنت تشتم أعراض الناس، وتهتك حريمهم، وترميهم بالمعضلات، إنّما المستحقُ مَن كَفَّ أذاه، وبذل نَداه، ووقم أذلّ أعداه. فقال له الحزين: أفَمَن هؤلاء أنت؟ فقال له عمرو: أين تُبعدني لا أُمَّ لك

من هذه المنزلة وأفضل منها))[٣٢] فوثب الحزين من عنده مغضباً يتطاير الشرُّ من جنبيه. وقد فتح عمرو على نفسه باب شرّ لا يُغلق بمال ولا بوساطة شريف من القوم، فقال من حينه[٣٣]:

حلفتُ وَمَا صبرتُ عليَّ بمينٍ    ولو أدعى إلى أيمانِ صبرِ
بربِّ الراقصاتِ بشُعثِ قومٍ    يُوافون الجمارَ لصُبحِ عشرِ
لو أنّ اللؤم كان مع الثريّا    لكان حليفَه عمرو بن عمرو
ولو أنّي عرفتُ بأنّ عمراً    حليفُ اللؤم ما ضيّعتُ شعري

إن اللهية هي التي أشعلت قريحة الحزين، فبقدر ما كان إحساسه بالفشل عميقاً، وقع هجومه كاسراً غليظاً، فدمغ مهجوّه باللؤم والبخل والمماطلة.

وكان محمد بن مروان بن الحكم قد دخل وسيطاً لإخماد النار بعد ان أهدى للحزين خمسة آلاف درهم على مدحةٍ مدحه فيها، وضمنها هجاءً موجعاً لعمرو، هذا بعضاً منه[٣٤]:

إذا لم يكن للمرء فضلاً يزينه    سوى ما ادَّعى يوماً فليس له فضلُ
وتلقى الفتى ضخماً جميلاً رُواؤه    يَرُوعك في النادي وليس له عقلُ
وآخرُ تنبو العينُ عنه مهذّبٌ    يجودُ إذا ما الضخمُ نَهنَهَهُ البخلُ
فيا راجياً عمرو بن عمرو وسَيبَهُ    أتعرف عمراً أم أتاه بك الجهلُ
فإن كنتَ ذا جهلٍ فقد يُخطئُ الفتى    وإن كنتَ ذا حزمٍ اذاً جارت النبلُ
جَهِلتَ ابنَ عمرو فالتمس سيبَ غيره    ودونك مرمى ليس في جدّه هزلُ
عليكَ ابنَ مروانَ الأغرَّ محمداً    تجدْهُ كريماً لا يطيشُ له نبلُ

وهكذا اتسع العداء بين عمرو والحزين، فجاء على لسان الهجّاء طعناً موجعاً بعد أن قصد عيوب المهجو النفسيّة، فجرده من الفضل، ولفت انتباه الناس إلى خصاله الذميمة المتوارية، وقد عقد مفاضلة بين المهجو البخيل المرائي وبين ممدوحه الأريحيّ النفّاح. فقال له محمد بن مروان: ((أكففْ يا أخا بني ليث عن عمرو بن عمرو ولك حكمك. فقال: لا والله ولا بحمر النِعَم وسودها، لو أُعطيتُها ما كففتُ عنه، لأنّه ما علمت كثير الشر، قليل الخير، متسلط على صديقه، فظٌّ على أهله وخيرُ ابن عمرو بالثريا معلق))[٣٥].

أقول: مَن كان لوّاماً لبني مقلّد، وبني قُريع، وقريش، وقد رضخوا لمطالب (الحطيئة) ونفّذوا شروطه، عليه أن يكفّ اللوم ويلتمس لهذه القبائل التي أغدقت على الحطيئة وغيره من الهجائين المتكسبين بالشر مالاً كثيراً، بعد أن يطّلع على هذا الخبر وغيره كثير في كتب الأدب والتاريخ والسير، ليرى ما حلَّ بمن منع العطاء – وإن كان على حق – من شرّ وهجاء مقذع.

وهاهو عمرو بن عمرو بن الزبير يُنعت بالشر والتسلط والهوج والفضاضة واللؤم، ويوصم بالخزي والعار، وكأن الشاعر الحزين صاحب حقٍّ مغتصب، أو دمٍ مراق لا تعدله حمر النِعم ولا سودها.

وما انفك الحزين ثائراً متوقداً، فقد سأله محمد بن مروان عن جملته الأخيرة في النص أعلاه (وخيرُ ابن عمرو بالثريا معلق) وقال له: هذا شعر؟ فقال: بعد ساعة يصير شعراً، ولو شئت لعجلته، ثم قال[٣٦]:

شرُّ ابن عمرو حاضرٌ لصديقه    وخيرُ ابن عمرو بالثريّا معلّقةُ
ووجهُ ابن عمرو باسرٌ إن طلبته    نوالاً إذا جاد الكريمُ الموفّقةُ
فبئس الفتى عمرو بن عمرٍ اذا غدتْ    كتائبُ هيجاءِ المنيّةِ تبرقُ
فلا زال عمروٌ للبلايا دريّةً    تُباكِرُهُ حتى يموت وتطرقُ
يهرُّ هريرَ الكلبِ عمرٌو اذا رأى    طعاماً فما ينفكُّ يبكي ويشهقُ

فعمرو في هذه الأبيات أمرش الشر، ظنين الخير، كالح الوجه، خوّار الفؤاد، نهم الطعام. وبعد ان قسا على الرجل قال له محمد بن مروان: ((أفٍّ لك، قد أكثرت الهجاء، وأبلغت في الشتيمة))[٣٧] فنشط الحزين مغاضباً، وكان محمد بن مروان قد وخزه بمدية حين نهاه عن هجاء الرجل. فقال نافثاً ما في جوفه من السم الزعاف:

لعمرُك ما عمرو بن عمرو بماجدٍ    ولكنّه كزُّ اليدين بخيلُ
ينام عن التقوى ويوقظُهُ الخنا    فيخبط أثناء الظلام يجولُ
فلا خير في عمرو لجارٍ ولا له    ذمامٌ ولكنْ لِلّئام وصولُ
مواعيدُ عمرو تُرّهاتٌ ووجهُهُ    على كلّ ما قد قلتُ فيه دليلُ
جبانٌ وفحاشٌ لئيمٌ مذمّمٌ    وأكذب خلق الله حين يقولُ
كلام ابن عمرو صوفةٌ وسط بلقعٍ    وكفُّ ابن عمرو في الرخاء تطولُ

وإن حَزَبتـــــــــــهُ الحازِ بـــاتُ تشـــنّجت … يـــداه ورمـــح فـــي الهيـــاج كليـــلُ

فلم يدع صفة ذميمة إلاّ ولصقها بالمهجو، فجعله: سمجاً، منقبضاً، خسيساً، فاحشاً في كلامه، فاجراً منتهكاً لأعراض الناس في دهمة الليل، خائناً لجاره، لئيماً، ناكثاً للعهد، رعديداً، مستحقراً، داعراً، زانياً، متخرّصاً، أفّاكاً، بليداً، متخاذلاً صغير الهمة ... وهكذا كان الحزين هائجاً ناقماً على عمرو، فعمد إذاعة هذا الهجاء على مسامع أعيان الناس وعامتهم، وقد حفر اسم عمرو – بتكراره في النص - حفراً في أذهان المستمعين. ((فلقي الحزين عروة بن أذينة الليثي فأنشده هذه الأبيات فقال له: ويحك، بعضها كان يكفيك، فقد بنيتها ولم تُقِم أَوَدَها، وداخلتها وجعلت معانيها في أكمتها. قال الحزين: ذلك والله أرغب للناس فيها. فقال له عروة: خيرُ الناس مَن حَلُمَ عن الجهّال، وما أراه إلاّ قد حَلمُ عنك. قال الحزين: حَلُمَ والله عنّي شاء أو أبى، برغمه وصَغَره))[٣٨].

سكوت عمرو – كما يقول الحزين – ليس اقتداراً أو حلماً أو تجاهلاً، وإنّما هو ذلٌّ وعجز ومهانة. ومن يتقصى هذه المَوقِعَة الهجائية يجد أنّ عمراً تجرّع مرارة التعريض والصِغار، ولم يفعل شيئاً للحزين، وإنما اكتفى بالقول: ((ما له لعنه الله ولَعَن مَن ولده، لقد هجاني بنيّة صادقة ولسان صَنَع ذَلْق، وما عَداني إلى غيري))[٣٩] ومن أمعن النظر في ردِّ عمرو يتنسم فيه فحوى اللين والمجاملة والمهادنة، وكأنّه جنح إلى إخماد نار الشاعر وامتصاص غضبه إذ يَلُوحُ ذلك في قوله : (هجاني بنيّة صادقة، ولسانٍ صَنَع ذَلْق).

وإذا كان عمرو قد خرج من هذه المعركة خاسراً، مثقلاً بالجراح، إذ لحقه عار كثير، فإن جرير بن عبد الله البجلي كان أكثر كياسة وتعقلاً من عمرو، وذلك عندما اشترى عرضه وشرف قبيلته من الشاعر الكوفي الأموي (عويف بن معاوية بن عقبة)، الملقب بـ(عويف القوافي)[٤٠]. ((فقد وقف على جرير البجلي وهو في مجلسه وقال:

أصُــبُّ علــى بَجيلــةَ مـــن شـــقاها … هِجـائي حـين أدركنـي المشــــــــيبُ

فقال له جرير: ألا أشتري منك أعراضَ بجيلة؟ قال: بلى، قال: بكم؟ قال: بألف درهم وبرذون، فأمر له بما طلب، فقال:

لــولا جريــرٌ هَلَكــتْ بَجيلــــــــــهْ … نِعـم الفتــى وبِئسـتْ القَبيلـــــــهْ

فقال جرير: ما أراهم نَجَوا منكَ بعد))[٤١].

وكان عويفُ القوافي ذكيّاً مراوغاً شَرِهاً، استفزّ مشاعر جرير ببيته الأول، وقد قرأ أفكار الرجل وغيرته على قومه، فحلب شطراً من المال ببيته الأول، وطمع بعطاء ثان، أومأ إليه في عجز بيته الثاني. وقد رآه حاصلاً لا محال. وهكذا كان حال المهجو/والهجّاء، يدفع فينجو ويتخلص. يمنع فَيُردى ويَصْغُر.

وهناك مواقف لا تخلو من الطرافة تدور أحداثها في مجالس الأمراء والوجهاء وأعيان الناس، شكّل الهجاء، أو التلويح به نقطة تحوّل في حياة الشعراء وكسبهم. فقد روى الأصفهاني خبراً عن الشاعر الكوفي الحكم بن عبدل، وكان هجّاءً خبيث اللسان، أعرجَ أحدب. سكن الكوفة وقد وَلي الشرطة فيها رجل أعرج، ثمَّ وَلي الإمارة أمير أعرج، وخرج ابن عبدل وكان أعرجَ فلقي سائلاً أعرج وقد تعرض للامير يسأله، فقال ابن عبدل للسائل:

أَلْــقِ العصـــا ودَعِ التخـــامُعَ والـــتَمسْ … عَمَـــلاً فَهَـــذي دَولـــةُ العُرجـــــــــــانِ

لأميرنـــــا وأميـــــرِ شُـــــرطتنا مَعَـــــاً … يـــا قومَنـــا لِكِليهمـــا رِجْـــــــــلانِ

فـــإذا يكـــونُ أميرُنـــا ووزيُرنـــــا … وأنـــا فـــإنّ الرابَـــعَ الشـــــيطانُ[٤٢]

فبلغت أبياته ذلك الأمير المُعاق، فبعث إليه بمائتي درهم وسأله أن يكُفَّ عنه[٤٣]. ومن مواقف الحكم بن عبدل الطريفة – أيضاً – ما جاء في الأغاني، إنه قدم واسطاً على ابن هبيرة وكان بخيلاً، فأقبل حتى وقف بين يديه ثم قال:

أتيتُـكَ فـي أمـرٍ مـن أمـــرِ عشــــيرتي … وأَعْيـــا الأمـــورِ المفظعـــاتِ جَســيمُها

فـإن قلـتَ لـي فـي حـاجتي أنـا فاعـلٌ … فقــد ثَلِجــتْ نفســي ووَلّـــتْ همومُهـــا

قال: أنا فاعل إن اقتصدتَ، فما حاجتك؟ قال: غُرْمٌ لَزِمَني في حَمالة، قال: وكم هي؟ قال: أربعة آلاف، قال: نحن مُناصِفُوكها، قال: أصلح الله الأمير، أتخاف عليَّ التخمة إنْ أتممتها، قال: أكره ان أعوّد الناس هذه العادة؛ قال: فأعطني جميعها سرّاً وامنعني جميعها ظاهراً حتى تُعوّد الناس المنعَ وإلاّ فالضررُ عليك واقع إن عودّتهم نصف ما يطلبون؛ فضحك ابن هبيرة وقال: ما عندنا غير ما بذلناه لك، فجثا بين يديه وقال: امرأتُه طالق لا أخذت أقلّ من أربعة آلاف أو أنصرف وأنا غضبان، قال: أعطوه إيّاها قبّحه الله – فأخذها

وانصرف"[٤٤].

ومن يتروّى الشاهدين السابقين لابن عبدل مع أميري الكوفة وواسط لا يقف فيهما على روح الظرف فحسب، وإنما يستشعر – أيضاً – نسق الوعيد أو التحذير المتنمّس روح الخطاب وجسده. ففي الموقف الأول أدرك أمير الكوفة فحوى الخطاب وتدبّر شرّه، فبعث للشاعر مالاً وسأله أن يكفّ الهجاء. وفي الموقف الثاني أصرّ ابن عبدل على قَبْض المال من دون نقصٍ وإلاّ انصرف ساخطاً حَرِداً. وقد توقى الأمير عاقبة المنع. فلبّى طلب الهجّاء على الرغم من بخله وشحِّ يده.

شعبيّة الظاهرة وانحسارها :

وما أن نصل إلى العصر العباسي حتى نجد هذا اللون من الهجاء يشكل ظاهرة شعبية واضحة، إذ قصد الهجاؤون المتكسبون بشعرهم ذوي المهن الشعبية وأطراف الناس بل قصدوا به أقرانهم من أهل الأدب والشعر.

ومن الملاحظ أنّ التكسب بالشر وهجاء الناس بالمعايب النفسيّة أو المعنوية أصبح أقلّ خطراً، وأنزر رهبة – ومن ثم أدنى كسباً – مما كان عليه في العصور السابقة، فقد انحسرت جسامته كلما أوغلنا في العصر العباسي؛ نتيجة تطور المجتمع، وتغيّر نظامه وثقافاته، إذ خفتت حدّة العصبيّة القبلية، وانكمش دور القبيلة بعد أن ثبتت أركان الدولة المدنية العباسية وتفرّعت مؤسساتها، واستحكمت أدوات تنفيذ سياستها، فقد عظمت الدواوين والوزارات، وتفخّم المُلكُ. وبذلك فقدت القبيلة جزءاً من نفوذها، ومن ثمَّ ضعف ولاء أفرادها، بعد أن كان ولاءً مطلقاً، بوصفها مصدراً لعِزّ الفرد وكرامته وأمنه، تدفع عن أفرادها الضيم والهوان، مثلما كانوا يدفعون حياتهم ثمناً لعزّها وشرفها[٤٥].

وإذا كان الهجّاء منذ العصر الجاهلي غاضباً على مهجويه يصمهم بالبخل والجبن والطمع، يُعرّي أحسابهم، ويطعن بأنسابهم، وهي من الرذائل والعيوب التي ترهب المهجوين لسلبهم قيم القبيلة العربية الأصلية، فإن الهجاء في العصر العباسي انحرف – بمقدار ما – عما كان عليه، واستوعب معاني جديدة فاحشة، وألفاظ مقذعة، لتغيّر الأسباب الدافعة إليه، فقد تغيّرت المثل العليا تبعاً لتغير الحياة الإجتماعية والمعايير الخُلُقيّة، وصرنا نرى أو صافاً أخرى ترسم لنا شخصيّة مهجوّة غير تلك التي رسمها العصر الجاهلي أو الأموي على ألسنة شعرائه[٤٦]. إذ غلب المجون الفاحش والنكتة الهزلية على شعر الهجاء في هذا العصر، فقد تزحزحت فيه القيم الإجتماعية وتردّت بصورة لم يسبق مشاهدتها في العصور الإسلامية السابقة[٤٧]. فلم يكن نعت المهجو – مثلاً – بالبخل والجبن والكسل وعدم حماية الجار والغدر وعدم الوفاء، وسيلة ضغط عالية على المهجو لاتقاء شر الهجّاء. كما أنّ ارتباط الأمراء والوزراء ورجال الدولة وأهل الثراء بنظام صارم يمتلك وسائل الردع والعقاب سبب آخر لكبح المتصيدين بالشر ومنعهم من الإقتراب إلى سور السلطان. لذا انخفضت قيمة هذا اللون المادية وتدنت مكانة شعرائه الإعتيادية، فلم يُعد الشاعر – كما كان – مرهوب الجانب، متّقى الشر، ينعم بالجوائز السنيّة والعطاء الوفير، وإنما صار يتحين صغار الطرائد هنا وهناك.

ويُعد بشار بن برد أبرز شاعر عبّاسي تكسب بالشر، وثلب أعراض الناس. وكان هجاؤه محملاً بالمثالب الأموية الممتزجة بفحش الهجاء العباسي وإقذاعه. فلم يبق ذو شرف إلاّ وهو يهابه ويخاف معرّة لسانه[٤٨]. فقد ذكر الأصمعي ((إنّ بشاراً كان من أشد الناس تبرّماً بالناس"[٤٩] فلم ينجُ من لسانه قريب ولا بعيد، وفي ذلك يقول الأصفهاني: ((كان بشار كثير الوَلُوع بدَيسم العنزيّ وكان صديقاً له وهو مع ذلك يُكثِرُ هجاءه))[٥٠]. وبشار صاحب القول اللاذع الشهير، وقد قيل له إنّك لَكثير الهجاء ((فقال: إنّي وجدتُ الهجاء المؤلم آخذ بضبُع (عَضُد) الشاعر من المدح الرائع، ومَن أراد من الشعراء أن يُكرَمَ في دهر اللئام على المديح فليستعدَّ للفقر وإلاّ فليبالغ في الهجاء ليُخاف فيُعطى))[٥١].

وبلغت شهرته بالهجاء الفاحش أن يتوقّاه (سيبويه) ((وكان إذا سُئِل عن شيء فأجاب عنه ووجد له شاهداً من شعر بشار احتجّ به استكفافاً لشره))[٥٢].

وبشار – كسابقيه – يُلوّح بالشر إن لم ينل بغيته، فيخافه الآخر ملبيّاً مذعناً. وقد رفدنا كتاب الأغاني بشواهد عدّة من هذا التلويح منها: لما أنشد بشار أرجوزته (يا طللَ الحيّ بذات الصمْدِ) لأمير البصرة عُقبة بن سَلْم، أمر له بخمسين ألف درهم، فأخّرها عليه وكيله ثلاثة أيام. فأمر بشارُ غلامَه أن يكتب على باب الأمير:

مازالَ ما مَنّيتني من هَمّي

والوعدُ غمٌّ فأرحْ من غمّي
إن لم تُرِدْ حمدي فراقبْ ذمّي

فلما خرج عقبة رأى ذلك، فقال: هذه من فَعَلات بشار، ثم دعا أمين ماله، وقال له: هل حملت إلى بشار ما أمرتُ له به، فقال: أيها الأمير نحن مُضيقون وغداً أحملها إليه، فقال: زد فيها عشرة آلاف درهم واحملها إليه الساعة؛ فحملها من وقته(٥٣).

فقد أدرك عقبةُ شرَّ كبير الهجائين وتعريضه الماكر المنبئ بأقبح الوصم، وأشنع الثلب، وخشي أن تلوكه الألسن، وتمضغه الأفواه، فلبى مسرعاً، بل زاد على ما أمَرَ به ضريبة للتأخير.

وكان بشار بصيراً بسلطة الهجاء وهيمنته الضاغطة على صاحب المال والجاه والسيادة. وفي الآن ذاته يُدرك مُسدي العطاء وَمُنِيْلُهُ دخيلة الشاعر الهجاء وطويته المنعقدة على البغي والاستئثار، ويبدو فحوى ما يضمره الطرفان في حديث بشار، إذ يقول: ((دخلت على الهيثم بن معاوية وهو أمير البصرة، فأنشدته:

إنّ السـلامَ أيُّهـا الأميـرُ
عليـك والرحمـةُ والسـرورُ

فسمعته يقول: إنّ هذا الأعمى لا يدَعنا أو يأخذ من دراهمنا شيئاً؛ فطمعت فيه فما برحت حتى انصرفت بجائزته))(٥٤).

أوْمَأ هذا النص إلى نوايا الطرفين ومآربهم الشفيفة، وأشار إلى مشهد تتصارع فيه القيم المادية، وتتزاحم فيه الأهواء الشرسة، إذ تكمن خطورة الحديث في ما يثيره من ظنون متبادلة تغذيها نيّة مبيّتة للإساءة والملاحاة، فالسلامُ والرحمة والسرور التي تضمنها النص، تتحول عند منع العطاء إلى أضدادها المختبئة وراء النص أو في ظلاله.

ومثلما تكون جودة المديح وإصابته – عند بشار وغيره – مرتبطة بوفرة العطاء وإفاضته، فإن قسوة الهجاء وشدّة إيلامه تقاس بالمعيار نفسه، ولكن بمعادلة معكوسة، فهي مرتبطة بشح العطاء وضآلته أو حرمانه. وهذا ما نلمسه في قول بشار وقد سأله رجلٌ: ((إنّ مدائحك عقبة بن سلم فوق مدائحك كلَّ أحدٍ، فقال بشار: إنّ عطاياه إيّاي كانت فوق عطاء كلِّ أحدٍ، دخلت إليه يوماً فأنشدته:

حـرَّم اللهُ أن تـرى كـابنِ سَـلْمِ
عُقْبـةِ الخيـرِ مُطْعِـمُ الفقـراءِ

لـيس يُعطيك لِلرجـاءِ ولا الخـوِ
فِ ولكـن يَلَـذُّ طعـم العطـاءِ

يسـقطُ الطيـرُ حيـثُ ينتشِـرُ الحَـبُّ
وتُغشـى منـازلُ الكُرمـاءِ

فأمر لي بثلاثة آلاف دينار، وها أنا قد مدحت المهدي وأبا عبد الله وزيره، أو قال يعقوب بن داود، وأقمت بأبوابهما حولاً فلم يعطياني شيئاً. أفألامُ على مدحي هذا!))(٥٥).

وإذا كان بشار في أبياته المدحية يجرد عطاء ممدوحه من الغايات، فهو لا يعطي خوفاً من هجاء ولا رجاء في مديح؛ فإنه قد لوّح – أيضاً – بمكر ودهاء إلى خطورة منع العطاء وحجبه، فهو يهمس بأذن ممدوحه بما ينبغي أن يكون عليه العطاء، مذكّراً إيّاه بسوء عاقبة حرمان الشاعر وزجره. ومن يتأمل قوله (أفألامُ على مدحي هذا!) يستنبط من ورائه احتمالاً ثانياً متوارياً، أو مسكوتاً عنه يُفهم من سياق الحديث يحيل المتلقي على معنى مقابل يفيد أن الشاعر غير ملام – أيضاً – في هجائه لمن يقف على أبوابهم ويرجع خالي الوفاض، فالكلمة كما يقول بارت ((تومض بحريّة لا متناهية، وهي على استعداد لأن تشع صوب ألف علاقة مبهمة وممكنة))(٥٦) إذ إن كلّ معنى في السلسلة السياقية يثير معاني أخرى – بالتداعي والإيحاء – خارجة عن القول، ولكنها تشترك معها في علاقة ما بالذاكرة، ويطلق سوسير على هذه العلاقات اسم العلاقات الإيحائية(٥٧).

وإذا كان بشار قد لوّح بالهجاء واتخذه سلاح تحذير وترهيب، فقدّم الشر على الخير، والتهديد قبل الرجاء، فإنه وقع في الفخّ ذاته، والمصيدة ذاتها التي ابتزّ بها الآخرين. فيأت في مواقف أخرى فريسة سهلة الإصطياد بالحبالة نفسها التي نصبها لغيره. ومن طرائف ذلك ما نجده في كتاب الأغاني، إنّ عقبة بن سَلْم الهُنائيّ أمر لبشار بعشرة آلاف درهم، فأُخبر الشاعر أبو الشمقمق بذلك، فوافى بشاراً وقال له: يا أبا معاذ، إنّي مررتُ بصبيان فسمعتهم ينشدون:

هَلّلينـة هَلّلينـهْ
طَعْـن قِثّـاةٍ لتينـهْ

إنّ بشـار بـن بـردٍ
تـيسٌ أعمـى فـي سـفينهْ

فأخرج إليه بشار مائتي درهم، وسدّ فاه، اتّقاءً لشره، وقال: خذ هذه ولا تكن راوية للصبيان يا أبا الشمقمق(٥٨). وفي موقف ظريف آخر يرمي الشاعرُ نسه بشاراً برمية هجائية يصطادُ فيها – كسابقتها – حفنة من المال، وكان بشار قد خَصّصَ لأبي الشمقمق عطاءً في كل سنة إتقاء لشر لسانه،

فأتاه في بعض السنين فقال له: هلمّ الجزية يا أبا معاذ، فقال: ويحك! أجزيةٌ هي؟ قال: هو ما تسمع؛ فقال له بشار يُمازحه ويستميله: أنت أفصح مني؟ قال: لا؛ قال: فأعلم مني بمثالب الناس؟ قال: لا؛ قال: فأشعر مني؟ قال: لا؛ قال: فَلِمَ أعطيك؟ قال: لئلاّ أهجوك؛ فقال له: إن هجوتني هجوتك، فقال له أبو الشمقمق: هكذا هو؟ قال: نعم، فقل ما بدا لك، فقال أبو الشمقمق:

إنّي إذا ما شاعرٌ هجانيهْ ... ولَجّ في القول له لسانيهْ
أدخلتهُ في أمّهِ علانيهْ ... بشارُ يا بشارُ ..................

وأراد أن يقول: يا ابن الزانية، فوثب بشار وسدّ فاه، وقال: أراد والله أن يشتمني، ثم دفع إليه مبلغاً من المال واستحلفه ألاّ يُسمِع الصبيان هذا الهجاء[٥٩]. وعلى ما يبدو أن الشاعر أبا الشمقمق كان ذكياً يعرف من أين تؤكل الكتف فقد انتهز عيوب بشار الخَلْقِيّة، من دمامة وعمى وضخامة وجحوظ عينين ... وعرضها عرضاً ساخراً، على شكل أهازيج خفيفة الإيقاع، شعبية اللغة، قصيرة النظم، سريعة الحفظ، يتلقفها الصبيان بالإنشاد لينغّصوا بها بشاراً أشد التنغيص، فيذعن صاغراً لمهجوّه، ملبياً لما يريد.

ومن يتصفح كتاب الأغاني يجد أن الشاعر أبا الشمقمق كان يترقب كبار الشعراء المتكسبين بالمديح، ويترصد جوائزهم، ويتحيّن مواقيت استلامهم لها، فينقض كالصقر الجارح على فريسته ينهش منها ما أمكنه النهش بمخالب الهجاء الماجن. ومثلما ابتز بشاراً وقضم من جائزته قضمةً داهم هذه المرّة الشاعر سَلْم الخاسر، وقد وُهِبتْ له جائزة، فقال أبو الشمقمق:

يا أمَّ سَلْمٍ هداك اللهُ زُورِ بنا ... كيما ننيكك فرداً أو تنيكينا
ما إن ذكرتُكِ إلاّ هاج لي شبقٌ ... ومثلُ ذِكراك أمّ السلم يُشجينا

فجاءه سلم ليّناً منقاداً وأعطاه مالاً يرضيه، وقال: أُحبُّ أن تعفيني من استزارتك أمي وتأخذ هذه الدنانير فتنفقها[٦٠].

ولعل الطابع الشعبي هو ما يميّز هذا اللون من الهجاء في العصر العباسي سواء أكان ذلك على مستوى اللغة والأسلوب، وما يلقطه الهجاؤون من استعمالات شائعة في الوسط الشعبي من سباب وشتيمة وفحش وإقذاع، ولصقها بالمهجو. أم على مستوى المواقف والحكايات والنوادر الشعبية الباعثة على الهجاء، التي تدور أحداثها في مجالس عامة الناس وأمكنة اشتغالهم، فقد كان جلّ الهجائين المتكسبين بشعرهم من الطبقة العامة، يصدر هجاؤهم عن روحها وما تنطوي عليه من شظف العيش والكفاف واللهو والمجون والظرف والفكاهة، فجاء هجاؤهم على شكل مقطعات قصيرة، مستقلّة البناء، خفيفة الإيقاع، سريعة الحفظ والانتشار، تنوء بالعيوب الفردية الفاحشة، وكان بعضها يسوء النفس ويحزنها، وبعضها يدعو إلى السخرية ويدفع إلى الإضحاك والتظرف والتملّح.

وهكذا ذهب الشاعر المتصيد بالشر وهجاء الناس يبحث عن فرائس صغار بين صفوف الحرفيين، وصغار التجار، والشعراء والمغنين، وأصحاب الحانات والملاهي. إذ لم يعد بمقدوره – كما ذكرنا سابقاً – ابتزاز رجال الدولة وأصحاب النفوذ والثراء كونهم محصّنين بدرع الدولة المنيع، وجهازها الأمني الحريز، وهو الأمر الذي أودى بحياة بشار بن برد شيخ الهجائين في ذلك العصر.

وقد أمدّنا كتاب الأغاني بنماذج هجائية من هذا اللون، لا تخلو من ابتزاز ظريف أو نكتة ماجنة وقد وقفنا على الروح الشعبية الطافحة في هجاء أبي الشمقمق لبشار وسلْم الخاسر، إذ جاء عفو الخاطر سهلاً خالياً من التكلف، مليئاً بالفحش والإقذاع.

وها نحن نقف على حكايات شعبية أخرى وما رافقها من هجاء تكسبي لنرى ما حدث لبشار بن برد وصديق له كان يبعث إليه في كل سنة بقواصرَ تمرٍ، ثم أبطأ عليه سنة؛ فحنق بشار، وكتب إليه:

تمرُكُم يا سُهَيْلُ درٌّ وهلْ بُطْـ ... ـمَعُ في الدرّ من يَدَيْ مُتَعَنِّي
فاحبُني يا سهيلُ من ذلك التمـ ... ـرِ نواةً تكون قُرْطاً لبنتي

فبعث إليه بالتمر، وأضعفه له، وكتب إليه يستعفيه من الزيادة في هذا الشعر[٦١]. ومن ذلك ما ذكره الأصفهاني في ترجمته للشاعر الأقيشر الأسدي إن جاراً له كان طحّاناً يُكنى أبا عائشة، يهشُّ للنساء ويلين، ويتجهم في وجوه الرجال ويقطّب. وقد وجد الأقيشر في هجائه مطمعاً للكسب، فقال فيه:

يُريدُ النساءَ ويأبى الرجال ... فما لي وما لأبي عائشهْ

أدام له الله كَدَّ الرجال ... وأثكله أبنته عائشهْ

فأعطاه ما أراد وأزاده، ورجاه ان لا يزيد شيئاً من هجائه[٦٢].

في هذين البيتين بساطة وشعبية، ينتميان إلى لغة العامة، وينضويان تحت شعرية الواقع اليومي والمألوف والهامش، فهما نثر شعبيّ منظوم خالٍ من اللغة الشعرية التي تصدم المألوف، وتتجاوز السطحي – رؤيويّاً وحلمياً – فالشاعر – هنا – لا يحفل باللغة ومجازاتها العميقة المأوّلة، فهي عنده ليست هدفاً وغاية في حدّ ذاتها، بل وسيلة سهلة لإيصال ما يريد لذلك المتلقي الشعبي (الطحّان) الذي لم يعبأ بالحدس، ولا يشغل فكره في الولوج إلى أعماق النص واستكشافه عبر رصد الأدوات الفنية الكامنة في لغته الخاصة. فالأقيشر أدرى بأنّ لكل مقام مقال، كما يقول ابن المعتمر[٦٣]. ولذلك أتى النصُّ نفعَهُ بوخزاتٍ هجائية طافحة على السطح، تضع المتلقي بين السبب والنتيجة عبر جمل بسيطة من لغة الجمهور الدارجة التي سرعان ما تدور على ألسنة العامة وتنتشر لتحقق مبتغى الشاعر من التشهير والثلب والتعيير.

لقد عُرِف الهجاؤون المتكسبون بالشر في العصر العباسي بهذا النهج الشعبي، وبهذه اللغة المحكيّة ذات الألفاظ المقذعة التي تغدو طاقة تعبيرية مؤثرة في الوسط الشعبي وسياقه اليومي المتداول.

ولنتأمل شاهداً ثانياً للأقيشر في كتاب الأغاني ونقف على ما فيه من شعبية وعفوية على مستوى اللغة والأسلوب والمشهد المرافق للحدث في هذه النادرة الطريفة. فقد أتى الأقيشر يوماً من الأيام بيت الخمار حُنين فلم يُصادفه، فجعل ينتظره وإذا بدخول امرأة عباديّة (نصرانية) فقال لها: أين فلان؟ قالت: مضى في حاجة وأنا أم حُنين، فما تريد؟ قال: نبيذاً. قالت بكم؟ قال: بدرهمين. قالت: هَلُمَّ درهميك وانتظرني. قال: لا - وظنّ أنّه نبيهاً لا يُغلب – قالت: فذلك إليك، ومضت وتبعها، فدخلت داراً لها بابان، خرجت من أحدهما وتركته، فلما طال جلوسه خرج إليه بعض أهل الدار، وسألوه عن سبب جلوسه، فأخبرهم، فقالوا له ضاحكين: تلك امرأة محتالة يُقال لها أمّ حنين. فعلم أنّه قد خُدِع فجاش صدره، وجرّد سيف لسانه المقذع، فقال[٦٤]:

لم يُغرّرْ بذات خُفٍّ سوانا ... بعد أخت العباد أَمّ حُنَيْنِ
وَعَدَتنا بدرهمين نبيذاً ... أو طِلاءً معجّلاً غيرَ دينِ
عاهدتْ زوجَها وقد قال انّي ... سوف أغدو لحاجتي ولِدَيني
فَدَعتْ كالحِصانِ أبيضَ جَلْداً ... وافر الأير مُرسل الخصيتينِ
قال ما أجرُ ذا هُديتِ فقالت ... سوف أعطيك أجرك مرّتينِ
فابدأ الآن بالسِفاحِ فلمّا ... سافحتْه أرضته بالأُخريينِ

ولم يتوانَ عن رشق حنين وأمه بالفسق والفجور والسفاح، إذ رماه بسهامه المؤلمة، فقصد عرضه، وهتك ستره، معرّضاً بأم المهجو بأبيات أخرى، مصوراً داره محطاً للعار والرذيلة. فجاءه حنين الخمّار وهو يدعو بالويل والثبور، فقال: يا هذا ما أردت بهجائي وهجاء أمّي؟! قال: أخذت منّي درهمين ولم تعطني شراباً قال: والله ما تعرفك أمّي ولا أخذت منك شيئاً قط، فانظر إلى أمّي فإن كانت هي صاحبتك غرمتُ لك الدرهمين قال: لا والله ما أعرف غير أمّ حنين، ولا أهجو إلاّ أمّ حنين وابنها، فإن كانت أمّك فإيّاها أعني وإن كانت أم حنين أخرى فإيّاها أعني فقال: إذاً لا يفرق الناس بينهما قال: فما عليّ إذاً! أتُرى درهميّ يضيعان! فقال له: هَلُمَّ إذاً أغرمهما لك، وأقم ما تحتاج إليه، لا بارك الله لك، ففعل[٦٥].

وأحسبُ أنّ حنيناً فعل خيراً وقد غرم الدرهمين، وأغلق فاه الأقيشر الذي وجد في هجائه المُقذع حجة سانحة لاسترداد درهميه، بل واستزاد عليهما. وهو حين يهجو طلباً للمال يفحش أيّما فحش، لا يتورع عن إيراد العبارات المخجلة، والألفاظ النابية، فينزل إلى مستوى السَوَقَة والمذّاعين، الأمر الذي جعل هذا اللون من الهجاء عنده شعبيّاً خالصاً. وكان مراوغاً ملسوناً ينتزع المال من عامة الناس وسوادهم بالحيلة والخداع، ويتخلص من المواقف المحرجة بالطرائق ذاتها.

ومن نوادره – أيضاً –انّه شرب في بيت خمار بالحيرة، فجاء أحدُ الشَرَطَةِ ليكبس عليه، فغلق الباب دونه، فناداه الشرطيُّ اسقني نبيذاً وأنت آمن. فقال: والله ما آمنك، ولكنْ هذا ثقب في الباب اجلس عنده وأنا أسقيك منه، ثم وضع له أنبوباً من قصب في الثقب وصبّ فيه نبيذاً من داخل والشرطيُّ يشرب من خارج الباب حتى سَكِر. فقال

الأقيشر:

سـأل الشـرطيُّ أن نسـقبه فسـقيناه بـأنبوب القصـب
إنّمـا نشـربُ مـن أمو النـا فَسَـلوا الشـرطيَّ مـا هـذا الغضـب[٦٦]

فاستمدّ تساؤله المحمّل بالأنساق الثقافية المضمرة من حياة الناس اليومية ، وألبسه ثوب البساطة والشعبية، فجاء نقداً لاذعاً معبّراً عما ينشده الشاعر من إفلات وتحرر من القيود المكبلة لرغباته وأهوائه.

ومن الملاحظ أن هذه الطائفة من الهجائين قد جُبلت على الشر، وجرّدت ألسنتها لابتزاز عامة الناس وخاصتهم، كما هو حال ابن ميادة فقد كان ((عرّيضاً للشر، طالباً مُهاجاة الشعراء ومُسابّة الناس، وكان يضرب بيده على جنب أمّه ويقول:

اعْرَنْزمي مَيَّادَ للقوافي
واستميعهنّ ولا تخافي
ستجدين ابنكِ ذا قِذافِ

أي إنّي سأهجو الناس فيهْجُونك))[٦٧].

وبعد أن شاع هذا اللون من الهجاء وأصبح حرفة وبضاعة ، وَوَقف الناسُ على مقاصد شعرائه وغاياتهم المادية المكشوفة، خفّت وطأته على الجمهور إذ تمرّد بعض المهجوين على هؤلاء المتكسبين بالشر والإقذاع والتجريح، وأعرضوا عن الانصياع لسطوتهم، بل ردّهم البعض وسخر من ألاعيبهم، فقد جاء في كتاب الأغاني ((هجا ابن الخياط موسى بن طلحة بن بلال التيمي، فقال:

عجـبَ النـاسُ للعجـب المُحَـال حـاض موسـى بـن طلحـةَ بـن بـلال
زعمـوهُ يحـيضُ فـي كـلّ شـهر ويَـرى صُـفرةً لكـلّ هـلال

فلقيه موسى، فقال: يا هذا، وأيّ شيء عليك؟ نَعم حضتُ، وحملتُ، وولدتُ وأرضعتُ. فقال له ابن الخياط: أنشدك الله ألاّ يسمع هذا منك أحد فيجترئ على شعري الناس، فلا يكون شيئاً، ولن يبلغك عني ما تكره بعد هذا، فتكافّا))[٦٨].

وكما يبدو جلياً فقد تجرّأ المهجو موسى بن طلحة على الهجّاء ابن الخياط وحرق أوراقه التكسبية المزيّفة، وعطّل ألاعيبه السحرية، فأشعره بالخيبة والإستجداء والنفاق والهوان. إذ فجأه برد دامغ فاضح فألجمه وعقد لسانه وكشف فساد بضاعته.

ولعل الحرمان والإملاق والشقاء من العوامل التي دفعت بعض شعراء العصر العباسي إلى ابتزاز الناس بالهجاء، بعد ان شعروا بأن سوق الشعر قد كسدت، لاسيما عندما يضمحل المسوّغ المناسب أو الدافع المثير، فقد كثر العرض وقلّ الطلب، فكانوا يندبون بوار صناعتهم وكساد بضاعتهم، حتى انتهى الحال ببعضهم إلى التذلل وإراقة ماء الوجه لانتشال قوت يومه بأيّة وسيلة حصلت. ونقع على شواهد كثيرة من هؤلاء الهجائين في كتاب الأغاني منهم مثلاً – ما جاء في أخبار الشاعر الكوفي بكر بن خارجة ((وكان ورّاقاً ضيّق العيش ... يمدح ويهجو بدرهم وبدرهمين ونحو هذا))[٦٩]. ومما قاله متوسلاً برجل من بني الطفيل، باحثاً عمّا يسدُّ به رمقه[٧٠]:

هـبْ لـي فـديتُك در همـاً أو درهمـين إلـى الثلاثـهْ
إنـي أحـبُّ بنـي الطفيـل ولا أحـبُّ بنـي عُلاثـهْ

بقي أن نشير إلى أنّ هناك مهمات غريبة يقوم بها هذا اللون من الهجاء، تجعل القيمة الفنية للشعر تنحسر، أو تتراجع، ليقوم بوظائف ومهام بعيدة عن الفن، وإن كانت لا تخلو من طرافة أو فكاهة، حين يكون الشعر داعية لاسترداد درهمين، أو كأسين من الخمر، أو الظفر بصاعين من الدقيق، أو انتزاع قوصرة تمرٍ، أو الإستحواذ على بردين باليين، أو امتلاك بعيرين أجربين. وقد يسهم هذا اللون من الهجاء في ترميم دارٍ أو تأثيثها، كما وجدنا ذلك في أخبار الشاعر أبي نُخيلة، وقد اشترى داراً ((وسأل في بنائها، فأعطاه الناسُ إتقاءً للسانه وشرّه، فسأل شبيب بن شبة فلم يعطهِ شيئاً واعتذر إليه، فقال:

يا قومُ لا تسوّدوا شبيبا
المَلَدان الخائن الكذوبا
هل تلدَ الذيبةُ إلاّ الذيبا

فقال شبيب ما كنت أعطيه على هذا القول شيئاً ... فسفر بينهما مشايخ الحي حتى يعطيَه، فأبى شبيب أن يعطيه شيئاً، وحلف أبو نُخيلة ألاّ يكفّ عن عِرضِه أو يأخذ منه شيئاً يتسعين به. فلما رأى شبيب ذلك خافه، فبعث إليه بما سأل ...))[٧١].ثم يوافينا أبو الفرج الأصفهاني بتتمة الخبر بعد أن امتثل شبيب لمراد الشاعر فقال: ((وغدا أبو نخيلة عليه وهو جالس في مجلسه مع قومه، فوقف عليهم، ثم أنشأ يقول:

إذا غَـدَتْ سـعدٌ علـى شـبيبها علـى فتاهـا وعلـى خطيبهـا

من مطلع الشمس عجبتُ من كثرتها
الى مغيبها وطيبها))[٧٢]

هذه الحكاية وما تخللها من (هجاء ثم مديح) تدعونا إلى الاستغراق في الشعر العربي، والتمعن في مواقفه، ودواعيه وأسبابه، ومهماته، وممدوحيه ومهجويه، بل يدعونا هذا الشاهد وغيره كثير، إلى إعادة النظر في بعض مفاصل تاريخنا القديم، ورجاله، وأيامه، ... ومثلما قرأنا فقد تغيّرت القيم الرذيلة من خيانةٍ، وكذب، ووضاعة، ومكر وحيلة، وبذاءة – بدراهم معدودات – إلى قيم نبيلة؛ فتوّة، وشجاعة، وكرم، وحسب عزيز، ونسب شريف. لذا فمن المفيد عدم تنحية النص عن صاحبه، وإقصائه عن مناسبته، وتجربته الإجتماعية، وعزله عن أحواله البيئية والثقافية، وإلاّ فإنّ الوصول إلى حقيقة النص ستبقى غير مكتملة الملامح، فالنص لا يتكون من فراغ، وإنما – مهما حلّق في آفاق التجريد أو الخيال – فإن له صلات إجتماعية وثقافية واقتصادية ... مختلفة الصور باختلاف المواقف والأحداث والتجارب، وباختلاف ثقافات الشعوب وعقائدها وتقاليدها وأعرافها. ومن هنا تأتي أهمية المناهج التي لا تتبرء من منتج النص، ولا تجرد النص من سياقه وما يحيط به من ظروف ومتغيرات تفيد في بلورته، وبيان حقيقة مضامينه.

الخاتمة :

شكّلت ظاهرة التكسب بالشر وهجاء الناس ملمحاً بارزاً في التراث الشعري العربي القديم، فقد ارتبطت هذه الظاهرة بالبعد السوسيولوجي من حياة المجتمع العربي، بوصفها حدثاً اجتماعياً واقعياً قائماً بين طرفين، أحدهما: هجّاء طمّاع يلوّح بالهجاء ويغمز إليه، يُخشى شرُّه، فيُخاف ويُعطى. فإن لم يجد التلويح جدوى نشر على مهجوّه المخازي – بقصد – وجعله أُضحُوكة ومُثْلة، فانصاع له مذعناً ملبيّاً. وثانيهما: مهجوٌّ مُرغمٌ على العطاء اتّقاءً للشر والثلب والضِعة والصغَار.

وإذا كان للشعراء في الهجاء أحوال وضروب وأسباب، منها: تعويض نقصٍ، أو إنعكاساً لأعراض نفسيّة دفينة، أو شجباً لموقفٍ أو ظلمٍ، أو حنقاً على أملٍ خاب، أو كرامةٍ هُدِرت ... فإنّ هذا اللون من الهجاء – موضوع بحثنا – له أسبابه ودواعيه الخاصة، فهو من أقوى الأسلحة الهجائية وأعتاها، يصدر عن الطمع المقِيت، ويتخذ من الوعيد والتهديد والسخط والتنكيل وسائل لابتزاز المهجو والإعتياش عليه. لا إصلاحه أو تطهيره من العيوب.

وقد تتبع البحثُ جذور الظاهرة وينابيعها في الشعر العربي القديم فوجد الأعشى (ميمون بن قيس) هو أوّل مَن بذر هذه الظاهرة في الشعر العربي الهجائي، وذلك عند لقائه قريش، وقد أراد أن يَفِد على النبي (ص) ليَسلِم، فردّته قريش بعد أن أغرته بمالٍ وفيرٍ إتقاءً لهجائه إن أسلَم. ثم نمت الظاهرة وترعرعت في العصر الإسلامي على لسان (الحطيئة)، فاتخذ من الهجاء وسلطته الصارمة تجارةً ومعاشاً، إذ سارعت الأشراف والقبائل وجمهور الناس إلى استرضائه بالمال والنِعم قبل أن يسبقهم شرّ هجائه.

كما وقف البحث على أوج الظاهرة وذروتها في العصر الأموي، فقد ذاع صيت المتكسبين بالهجاء في هذا العصر، ولم يقتصر خطرهم على نطاق القبائل أو البلاد التي يقطنونها، إنمّا عبرت أخبارهم الآفاق، وأرهبت ألسنتهم أعيان القوم وأشرافهم. وفي تحذير عبد الملك بن مروان لابنه عبد الله – وقد خرج من الشام إلى الحجاز – بعدم الإحتجاب عن الشاعر الحجازي (الحزين الكناني) واسترضائه بالمال لَدليل جليّ على سلطة هذا اللون من الهجاء وفعله العنيف.

وفي العصر العباسي تميّز التكسب بالشر وهجاء الناس بالبساطة والشعبية، واستوعب معاني جديدة فاحشة، وألفاظ مقذعة، فقد تغيّرت المثل العليا تبعاً لتغيّر الحياة الإجتماعية والمعايير الخُلُقيّة، إذ قصد الهجاؤون ذوي المهن الشعبية وجمهور الناس، وتحاشوا رجال الدولة وأعيانها، خوفاً من العقاب والتنكيل. لذا انحسرت خطورة هذا اللون من الهجاء بشكل ملحوظ عمّا كانت عليه في العصر الأموي، وتدنّت مكانة شعرائه الإعتباريّة، بعد أن خفتت حدّة العصبية القبلية، وانكمش دور القبيلة، وتغيّر نظام المجتمع وثقافاته في ظل الدولة العباسية وهيبتها الإدارية الجديدة.

وهكذا جاء هذا اللون من الهجاء العباسي ساخراً فَكِهاً، على شكل أهازيج ومقطعات شعبية اللغة والأسلوب، خفيفة الإيقاع سريعة الحفظ والإنتشار. وهي جميعها تنظم في مواقف وحكايات ونوادر واقعية باعثة على الثلب والهجاء.

الهوامش :

(١) ينظر : العمدة ، ابن رشيق : ٨٠/١-٨١.
(٢) المصدر نفسه : ٨٢/١-٨٣.
(٣) ينظر : الزينة في أسماء الكلمات الإسلامية ، الرازي : ٤٥.
(٤) شرح حماسة أبي تمام ، المرزوقي : ١٧/١.
(٥) ينظر على سبيل المثال : العمدة : ٨٣/١-٨٥. كتاب الصناعتين : ١٤٢-١٤٣.
(٦) الحيوان ، الجاحظ : ٢٤٣/١.
(٧) الأغاني : ١٤٤/٣.
(٨) ينظر : الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، د. محمد محمد حسين : ١٢٣.
(٩) الأغاني : ٩٣/٩.
(١٠) المصدر نفسه : ٩٣/٩.
(١١) المصدر نفسه : ١٨/١٠.
(١٢) المصدر نفسه : ١٩/١٠.
(١٣) ينظر : العمدة : ١١٨/١.
(١٤) ينظر : البخلاء : ١٩٩/١-٢٠٠.
(١٥) ينظر : العمدة : ٨١/١-٨٢.
(١٦) ينظر : الهجاء والهجاءون في الجاهلية، د. محمد محمد حسين : ١٢٤.
(١٧) الأغاني : ١١٠/٢.
(١٨) المصدر نفسه : ١١٠/٢.
(١٩) المصدر نفسه : ١١٥/٢.
(٢٠) ينظر : الهجاء والهجاءون في الجاهلية : ٧٦.
(٢١) الأغاني : ١١٥/٢-١١٦.
(٢٢) المصدر نفسه : ١٠٦/٢.
(٢٣) ينظر : المصدر نفسه : ١٢٤/٢.
(٢٤) الهجاء والهجاءون في الجاهلية : ١٢٤.
(٢٥) ينظر: الأغاني : ١٠٨/٢.
(٢٦) المصدر نفسه : ١٠٨/٢-١٠٩.
(٢٧) المصدر نفسه : ٢١٩/١٥.
(٢٨) المصدر نفسه : ٩/٩-١٠.
(٢٩) المصدر نفسه : ٢١٩/١٥.
(٣٠) المصدر نفسه : ٢٢٠/١٥.
(٣١) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ، قحطان رشيد التميمي : ٤٤.
(٣٢) الأغاني : ٢٢٨/١٥.
(٣٣) المصدر نفسه : ٢٢٨/١٥.
(٣٤) المصدر نفسه : ٢٢٨/١٥.
(٣٥) المصدر نفسه : ٢٢٩/١٥.
(٣٦) المصدر نفسه : ٢٢٩/١٥.
(٣٧) المصدر نفسه : ٢٢٩/١٥.
(٣٨) المصدر نفسه : ٢٣٠/١٥.
(٣٩) المصدر نفسه : ٢٣٠/١٥.
(٤٠) سُميّ عُوَيف القوافي لبيت قاله:

سـأكذِبُ مَـن قـد كـان يـزعمُ أنني ... إذا قلـتُ قـولاً لا أُجيـد القوافيـا

ينظر : الأغاني : ١٣٦/١٩.
(٤١) الأغاني : ١٣٦/١٩-١٣٧.
(٤٢) في هذا البيت إقواء.
(٤٣) ينظر : الأغاني : ٢٦٥/٢-٢٦٧.
(٤٤) المصدر نفسه : ٢٦٩/٢.
(٤٥) ينظر : العصر العباسي الأول ، د. عبد العزيز الدوري : ٣٧-٣٨.
(٤٦) ينظر : الشعر العربي بين الجمود والتطور ، د. محمد عبد العزيز الكفراوي : ١٣٨.
(٤٧) ينظر : في الأدب العباسي ، الرؤية والفن ، د. عز الدين إسماعيل : ٣٨٤-٣٨٥.
(٤٨) ينظر : الأغاني : ١٠٣/٣.
(٤٩) المصدر نفسه : ٩٧/٣.
(٥٠) المصدر نفسه : ١٠٥/٣.
(٥١) المصدر نفسه : ١٤٤/٣.
(٥٢) المصدر نفسه : ١٤٦/٣.
(٥٣) ينظر: المصدر نفسه : ١٢٦/٣.
(٥٤) المصدر نفسه : ١٤١/٣.
(٥٥) المصدر نفسه : ١٣٥/٣.
(٥٦) الشعرية البنيوية ، جوناثان كلر ، ترجمة السيد إمام : ٢١٨.
(٥٧) ينظر : علم الأسلوب والنظرية البنائية ، د. صلاح فضل : ٣٥١/٢-٣٥٢.
(٥٨) ينظر : الأغاني : ١٣٥/٣.
(٥٩) المصدر نفسه : ١٣٥/٣.
(٦٠) ينظر : المصدر نفسه : ١٩٨/١٩.
(٦١) ينظر : المصدر نفسه : ١٦٢/٣.
(٦٢) ينظر : المصدر نفسه : ١٧٤/١١.
(٦٣) ينظر : البيان والتبيين ، الجاحظ : ١٣٦/١.
(٦٤) ينظر: الحكاية والأبيات في الأغاني : ١٧٦/١١-١٧٧.

(٦٥) ينظر : الأغاني : ١٧٧/١١.
(٦٦) ينظر : البيتان وحكايتهما في الأغاني : ١٧٨/١١.
(٦٧) الأغاني : ١٧٢/٢
(٦٨) المصدر نفسه : ٢٢٥/١٩.
(٦٩) المصدر نفسه : ١٦٦/٢٣.
(٧٠) المصدر نفسه : ١٦٦/٢٣.
(٧١) المصدر نفسه : ٢٦٠/٢٠.
(٧٢) المصدر نفسه : ٢٦٠/٢٠.

المصادر والمراجع :


(١) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ، قحطان رشيد التميمي ، دار المسيرة ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٤.
(٢) الأغاني ، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، تحقيق: الدكتور إحسان عباس ، الدكتور إبراهيم السعّافين، الأستاذ بكر عباس، دار صادر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
(٣) البخلاء ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، إشراف محمد كايد ، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
(٤) البيان والتبيين ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
(٥) الحيوان ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وضع حواشيه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
(٦) الزينة في أسماء الكلمات الإسلامية ، أبو حاتم الرازي ، تحقيق: حسين بن فضل الله الهمذاني ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٥٧م.
(٧) شرح حماسة أبي تمام ، المرزوقي ، تحقيق: أحمد أمين ، وعبد السلام محمد هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
(٨) الشعر العربي بين الجمود والتطوّر ، الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوي ، مكتبة نهضة مصر ، الفجّالة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.
(٩) الشعريّة البنيوية ، جوناثان كلر، ترجمة: السيد إمام ، دار شرقيات للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م.
(١٠) العصر العباسي الأول ، دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي ، الدكتور عبدالعزيز الدوري ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٧م.
(١١) علم الأسلوب والنظرية البنائية ، الدكتور صلاح فضل ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
(١٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ، تحقيق: محمد محيّ الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.
(١٣) في الأدب العباسي (الرؤية والفن)، الدكتور عز الدين إسماعيل ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٥م.
(١٤) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) ، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الثانية ، ١٩٧١م.
(١٥) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، الدكتور محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م.